مصطفى صادق الرافعي

رسائل الأحزان

في فلسفة الجمال والحب

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

مصطفى صادق الرافعي

رسائل الأحزان

في فلسفة الجمال والحب

مطبعة الاستقامة بالقاهرة
شارع نوبار باشا رقم ١٢

ضبطه وصححه وحقق أصوله

محمد سعيد العربان

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى: شارع محمد علي بمصر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة السادسة

١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

محمد سعيد العريان

« هى رسائل الأحزان ؛ لا لأنها من الحزن جاءت ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ؛ ثم لأنها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حرباً ؛ ثم لأن هذا التاريخ الغزلى كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضياً إلى قبر . . . ! »

مصطفى صادق الرافعى

من حق القراء علىَّ وقد هممت أن أكتب تصدير هذا الكتاب ، أن أكشف عن بعض البواعث النفسية التى أملتْهُ على مؤلفه .

إن كثيراً ممن قرءوا هذا الكتاب لأول صدوره ، لم يعرفوا فيمَ أنشأه مؤلفه وإلى أى غاية رَمَى به ؛ ومن ثَمَّ كانت تهمتهم له بالتكلف والغموض ؛ إذ كان هذا الكتاب فى جملته عند من لم يعرف قصة الرافعى العاشق ـ كالإيمان إلى المجهول الذى لا يبلغه الفكر ولا يمتدُّ إليه النظر ؛ وما ظنُّك بكتابٍ ينشئه كاتبُه ليتحدث

عن خواطره ويبثّ ذات صدره فى حادثةٍ لا يعرف القارئ شيئاً من خبرها ولا يتهيأ له ؟

وإنها لقصة حُب ؛ ولكنه حبٌّ من طرازٍ غير مايعرف شباب اليوم ... فلما بلغت القصةُ نهايتَها التى كانتْ ، فاء الرافعى إلى نفسه يؤامرها وتُؤامره ، فكان هذا الكتاب وكتابان من بعده [١] . وما بى فى هذا المكان أن أروى ما كان أو أتحدث عن خبره ، فإن لذلك موضعا هو أليقُ به وأقدر على الوفاء [٢] ؛ وحَسْبى هنا أن أشير إلى شىء يعين على ما نحن بسبيله .

* * *

... خرج الرافعى من مجلس صاحبته مُغْضَبا ، فى نفسه ثورة تَوُجّ ، وفى أعراقه دمٌ يفور ، وفى رأسه مرجلٌ يتلهب ؛ وكتب إليها كتاب القطيعة وأرسل به ساعى البريد ؛ ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيما كتب شفاءً لنفسه ، ولا هدوءا لفكره ، ولا راحة فى أعصابه ؛ وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبته ، أنه

---

(١) السحاب الأحمر ، وأوراق الورد .

(٢) تقرأ خبر الرافعى العاشق فى كتابنا « حياة الرافعى » ص ٧٣ إلى ١١٩

فى حاجة إلى من يتحدث إليه ؛ وافتقد أصحابه فما وجد منهم أحداً يبثه أحزانه ويفضى إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أحماله .

لقد شغله الحب عن أصحابه عاما بحاله ، لا يلقاهم ولا يلقونه ، ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون ؛ فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغربه ، بلياليه وأصباحه وتاريخه وحوادثه . وثقلتْ عليه الوحدةُ وضاقت بها نفسه ؛ ففزع إلى قلمه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته ؛ فكتب الرسالة الأولى من « رسائل الأحزان » إلى صديقه الذى خصه بسرّه ... إلى نفسه ...

وترادفَتْ رسائلُه من بعدُ مسهبة ضافية ، يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته ، فى أسلوب فيه كبرياء المتكبر ولوعة العاشق ومرارةُ الثائر الموتور ، و ... ذِلةُ المحب يستجدى فاتنَته بعضَ العطف والرحمة والحنان !

* * *

يخاطب الرافعى نفسه فى هذا الكتاب على أسلوب (التجريد) فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه ؛ فتراه يُوجِّه الخطابَ فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبث والشكوى ؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق نتفاً من الرسائل

يدير عليها أسلوباً من الحديث فى رسائله هو ؛ وما هناك صديق ولا رسائل ، إلا الرافعى ورسائله ، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه .

أو قل : إن الرافعى فى هذه الرسائل جعل شيئاً مكان شىء ؛ فأنشأ هذه الرسائل لصاحبته ، ثم نشرها كتابا تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه ، أو ما يظن هو أنها لم تكن تعلمه ؛ فهى رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفى ذات نفسه ولا تنال من كبريائه !

وفى بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين ما يريد إعلانه ، وتقف النفس فى حيرتها بين نداء القلب وكبرياء الخُلق - يتمنى العاشق لو كان له ملء الفضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبته من غير أن يعترف بأنه رسول ... وتكون أبلغ الرسائل عنه أن يكتب إلى حبيبته : « إنه يحبك » يعنى : « أنا أحبك ! » ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على مرأى ومَسمع ، ومن لفتات قلبها على مشهد قريب ... ! وبهذا الأسلوب كان الرافعى يتحدث عن نفسه بضمير الغائب فى رسائل الأحزان .

« أنا . . . » هذا الضمير الذى لا يتحدث به متحدث إلا سمعتَ فى نبره معنى شموخ الأنف وصَعَر الخد وكبرياء الخُلق ـ لا يؤدِّى فى لغة الحب إلا معنًى من التذلل والشكوى والضراعة ؛ فما تسمعه من العاشق المفتون إلا فى معنى اليد الممدودة للاستجداء ، وما تقرأ ترجمتـه فى أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا فى معنى : « أنا محروم . . . »

ياعجباً للحب ! كل شىء فيه يحول عن حقيقته حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام . وكذلك كان الرافعى يقول فى رسائل الأحزان « هو » ويعنى : « أنا . . . » لأنه لا يريد أن يبتذل كبرياءه فى لغة الحب . . . . . !

* * *

بلَى ، إن الرافعى لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتابا يقرؤه الناس ، ولـكن لتقرأه هى ، وهى كل حَسْبه من القراء ؛ فمن ذلك لم يجرِ فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصةٍ فيها اليومُ والشهر والسنة : وفيها الزمانُ والمكان والحادثة ، بل أرسلها خواطرَ مطلقة لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع ، أو يجد فيها الملل وحيرةَ الفـكر وشرود الخاطر .

ولم يكتبها — كما زعم — رسائلَ أدبية عامة تتم بها العربيةُ تمامَها فى فن من فنون الرسائل لم يُؤْثر مثْله فيما نُقل إلينا من تراث الكتاب العرب ، ليحتذيه المتأدبون وينسجوا على منواله ؛ بل هى رسائل خاصة تترجم عن شىء كان بين نفسين فى قصة لم يذكرها فى كتابه ولم ينشر من خبرها .

وبذلك ظلت « رسائل الأحزان » عند أكثر قراء العربية ، شيئا من البيان المصنوع تكلفه كاتبُه يحاول به أن يستحدث فنا فى العربية لم يوفق إلى تجويده . على أنه كتاب فريد فى أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع ، ولكنه بقيةُ قصة لم تنشر معه ، فجاء كما تأكل النار كتابا من عيون الكتب فما تُبقى منه إلا على الهامش والتعليق ، وصُلْبُ الكتاب رمادٌ فى بقايا النار . . .

فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحزان فليقرأ قصة غرام الرافعى قبل أن يقرأه ؛ فسيجد فيه عندئذ شيئاً كان يفتقده فلا يجده ، ولسوف يوقن يومئذ أن الرافعى أنشأ فى العربية أدبا يستحق الخلود

* * *

... ولكن فى رسائل الأحزان شيئاً غير ما قدَّمتُ من أشيائه . ذلك أن الرافعى (رحمه الله) كان ولوعا بأن يضيف إلى كل شىء

شيئاً من عنده ؛ وتلك كانت طبيعته فى الاستطراد عند أكثر ما يكتب . . .

سيجد الباحث فى رسائل الأحزان عند بعض الرسائل وفى هامش بعض الصفحات من الكتاب ، كلاما وشعراً لا يتساوق مع القصة التى أومأت إليها . ألا إن الرافعى كانت تغلبه طبيعته الفنية فى الكتابة أحياناً فيستطرد إلى ما لا يريد أن يقول ؛ ليثبت معنى يخشى أن يفوته ، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التى يرويها أشبه ، أو لأن تعبيراً جميلا وجد موضعه الفنى من الكلام وإن لم يجد موضعه من الحادثة ؛ فإن رأى الباحث شيئاً من ذلك فلا يُداخِله الريب فيما أثبتُّ من خبر الرافعى العاشق .

وسيجد فى بعض الرسائل حديثاً وشعراً عن لبنان وأيامٍ فى لبنان ؛ وما عرف الرافعى صاحبته إلا فى مصر وإن كان منبتها هناك ؛ فليذكر القارئُ ، أن صاحبة الرافعى التى أنشأ من أجلها هذا الكتاب لم تكن هى أولى حبائبه ؛ وقد كان له قبل أن يعرفها فى الغرام جَولَان . وكان بعض من أحبَّ قبلها فتاة أديبة عرفها فى لبنان ، وهى سَمِيَّةُ صاحبتِنا هذه ؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعى بعضها فى « أوراق الورد » وهى التى أنشأ من أجلها كتابه

« حديث القمر » ، على أن عمر الحب لم يُطلْ بينهما . إذ تزوجتْ وهاجرتْ مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك ـ وما تزال ـ فما جاء فى « رسائل الأحزان » من حديث لبنان وذِكْرِ أيام هناك ، فهو بقية من ذكرى صاحبة « حديث القمر » أقحمه فى رسائله حرصاً عليه وبخلا به على الضياع .

* * *

لقد كان حب الرافعى الأخير حادثة فى أيامه فعاد حديثاً فى فكره . ورسائلُ الأحزان هى أول ما أنشأ من وحى هذا الحب ، على أن قارئه يقرؤه فما يعرف أهو رسائلُ عاشقٍ ألح عليه الحب ، أم زفرةُ مبغض يتلذّع بالبغض قلبه ؟ والحقّ أن الرافعى أنشأه وهو من الحب فى غمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادرٌ على أن يبغض من كان يحب ، بغضاً يردّ عليه كبرياءه وينتقم له ؛ فما فَعَل إلا أن أعلن حبَّه فى أسلوبٍ صارخ عنيف ، كما تحنو الأمُّ على وليدها فى عنفوان الحب فتعضُّه وإنها لتريد أن تقبِّله ، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه فى عنف وما بها إلا الترفُّق والحنان . . . !

* * *

... ولئن كانت رسائل الأحزان هى أولَ ما بين الرافعى وصاحبته من رسالات الحب ـ بعد ما كان بينهما من القطيعة ـ لقد تتابعت الروايةُ فصولا من بعد ؛ فكان الكتابان الأخيران : السحاب الأحمر ، وأوراق الورد !

محمد سعيد العريان

مقدمة المؤلف

كان لى صديقٌ خلطتُهُ بنفسى زمناً طويلاً ؛ وكنت أعرفه معرفة الرأى كأنه شىء فى عقلى ، ومعرفة القلب كأنه شىء فى دمى ؛ ثم وقَعَ فيما شاء الله من أمور دنياه حتى نسينى ، وطار على وجْههِ حتى غاب عن بصرى ، والتفَّتْ عليه مذاهبُهُ فما يقع إلىَّ من ناحيته خبرٌ ؛ وامتدَّ بَينى وبينه حَوْلٌ كامل ، خلا من شخصه وامتلأ من الفكر فيه ؛ كأنه العامُ الأول من تاريخ حفرةٍ بين القبور العزيزة التى لا تُنْسَى !

وطلعت الشمسُ يوماً فى غيم يناير من سنة ١٩٢٤ ، فأحسستُ قلبى من الذُّعْر كالطائر يَنْفُضُ نَدَى جناحيه فى أشعتها ، ولم تكد ترتفع وتتلألأ حتى وافى البريد يحمل إلىّ خطه ، وإذا فيه :

« يا عزيزى الحبيب !

« فقدتَنى زمناً إن يكن فى قلبك منه وخْزة ففى قلبى منه كزّ السيف ؛ لم أنسك نسيانَ الجحود وإن كنتُ لم أذكرك ذكرى الوفاء فأبعثَ إليك بخبر يترجم عنى : إذ كنتُ فى سجن وأنا الساعةَ منطلق منه ... لا تجزع ، ولا تحسبنَّه سجن الحكومة ... إن هو

إلا سجن عينين ذابلتين ، كان قلبي المسكينُ يتمزَّعُ فى أشعة ألحاظهما ، كما يكون المقضى عليه إذا أحاطت به السيوفُ وجعل بريقُها يتخاطف معانىّ الحياة من روحه قبل أن يخطف هذه الروح ! ... بل سجنُ فكرى الذى ابتُليتُ به وبخياله معاً . فلا يزال واحد منهما يبالغ فى إدراك الجمال والآخر يبالغ فى تقديره حتى تكاد تطلُعُ نفسى من نواحيها [1] لكثرة مايُسرِفان عليها كما يريد الأطفالُ أن يملئوا القدحَ ليستفيضَ لا ليمتلئ ، وليرسلَ الماءَ لا ليُمسِكه ؛ فلو أنهم صبُّوا فيه ملء بحر بأمواجه لجرى البحر من حافة قدح صغير !

« ما أحسبنى قطُّ رأيتُ امرأة جميلة كما هى فى نفسها وتركتها كما هى فى نفسها ؛ بل هناك نفسى ، وآهِ من نفسى ! وما أسرعَ ما يمتزج فى هذه النفسِ بعضُ الإنسانيةِ المحبة ببعض الإنسانية المحبوبةِ ، فإذا أنا بشىء إلهىٍّ قد خرج لى من الإنسانيتين : هو هذا الشعر ؛ هو هذا البلاء ؛ هو هذا الحب .

« فررت منك ومن سواك ياعزيزى مُصَيِّف [2] إلى امرأة كالتى

---

(١) إذا امتلأ الشىء إلى آخره ، قيل يتطلع من نواحيه .

(٢) مصيف به : تصغير « مصطفى » على قاعدة الترخيم ، وكان =

جعلت آدم يفرُّ حتى من الجنة ومن الملائكة ؛ وقد يكون اتصال رجل واحدٍ بامرأةٍ واحدة . كافياً أحياناً لتكوين عالمٍ كاملٍ يسبح فى فَلَكٍ وحده ؛ عالَمٍ مسحور ، فى فلك مسحور : لا يخضع إلا لجاذبية السحر . ولا يعرف إلا تهاويل السحر !

« على أنك لم تفقد منى فى هذه السنة إلا بضعة كُتُب ، وكلاما كنا نَتَرسل به وليس فيه إلا الحبر ؛ فسأردُّ عليك من ذلك كتُبَ سنوات . وأعوضك برسائلى كلاماً فيه دمعُ العين ودمُ القلب .

« فقدتَنى صديقاً يهزُّ يديك بتحيته ، والآن أعود إليك شاعراً يهز قلبك بأنينه ، فقدتَنى شخصاً وسأرجع إليك كتابا ! .

« أما أنت فاكتب لى رجع كل رسالة تأتيك من قِبَلى ، واذكرلى موقعها من نفسك . وكيف كان دَبيبها أوطيرانها عندك ، فإنى راميك بأسهم لا قاصراتٍ عن قلبك تنزل دونه ، ولازائدات تمر عليه وتتجاوزهُ ؛ بل مسَدداتٍ يقعن فيه ! .

= الصديق يتحبب إلى به .

قلت : هكذا زعم الرافعى ـ رحمه الله ـ والصواب : صفى (بضم ففتح فتضعيف) وما أحسب هذا الرأى قد غاب عن الرافعى حين آثر استعمال هذا النداء ، ولكن شيئاً هناك ... فليرجع إليه من شاء فى كتابنا « حياة الرافعى » ص ٨٠

« وأرجو (عافاك الله) أن لا تتطلعَ فى قلمى بنقد أو اعتراض أو تعقيب ، بل دعنى وما أكتبه كما أكتبه ؛ فإن لكل شىء طرفين ، وإن طرفى الجمال هما الحب والبغض ؛ ورسائلى هذه ستأتيك بالجمال من طرفيه . . . فلقد والله أحببتُ حتى أبغضت ، ولقد والله يُضجرُ العمل السامى إذا أصاب غير موضعه . كما يُضجِرُ العمل السافل إذا نزل فى موضعه ! .

« ومتى انقطع هـذا المدَد المتلاحق من كتبى . فاجمع الرسائل وقدم لها كلمة بقلمك ، ثم اطبعها وسمها « رسائل الأحزان » .

« إنهـا كانت عواطف ثارت وقتاً ما ليحدث منها تاريخ ، وسكنت بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة ! .

« فإن نجتمع بعدُ نظرنا فيهـا معا وقرأتها عيناك لقلبى ؛ وإن ارتاح الله لى برحمته [1] رفَّتْ عليها روحى فأسمع صوتك فى الغيب يرسل إلى هذه الروح تحية من أنغام قلبها الميت ! »

٢١ يناير سنة ١٩٢٤ صديقك

(. . . .)

* * *

(١) كناية عن الموت .

وجعلتْ رسائل الصديقِ تترادفُ إلى مُسْهبه ضافية ، تقطرفيها نفسه كما ترسل السحابة المنتشرة قطرات انعقدت وانحلت . ثم جعلت نفسه تنطوى على نأى حبيبته ، واشتدّ عليه أمرها ؛ ثم أسهل وانقاد ، واعتادها هاجرة فراش قايلا[1]، ثم كف ؛ ومرت الظبية تطفو[2] ووهبها للبر الواسع ...

وانقلب عنها بعد أن ملأت نفسه كما يقول فى بعض رسائله : « بمثل البحر ملحا ومرارة » ...

أما هذا الصديق فأعرفه أسلوبا من الكِبْر ولكن على نفسه ، ومن الشذوذ ولكن فى نفسه ؛ كأنما فتحت أفواهُ عروقه جنينا وملأتها الوراثة من دم ملك كان فى أجداده ... مستصعب شديدُ المراس ، فهو أبداً فى حياته كالملِك الذى حالت السيوف والأسنة والقوانين بينه وبين تاجه ، فجعلت له حياتين يفصل الموت بينهما ؛ اجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمنُ تحت عينيه نَيِّفاً وأربعين سنة ؛ فهو تاريخ أحزانٍ قد استفاضت مسائلُه فى فصولٍ وأبوابٍ ، جفّ القلم منها على نيِّف وأربعين جزءا ، كلماتُها فى حوادثها ، وإن

---

(١) أى أبطأ . وأسهل : عاد سهلا .

(٢) تعدو لخفتها عدواً شديداً .

السطر منها ليُرْعَدُ فى صحيفته من الغيظ ، وإن الكلمة لتبكى بكاءً يُرَى . وإن الحرف ليئن أنيناً يُسْمَع ، وإن تاريخه كلَّه ليتنفض ، لأنه مصيبة مَلَكية مصورة فى ملك !

* * *

لقد سَبَقَ الكتابُ وجف القلم الأزلى على علم الله ، فما أتينا إلى هذه الدنيا إلا ليمثِّل كلٌّ واحد منا فصلا من معانى الشقاء الإنسانى فى تلك الثياب التى هى مِلْك لصاحب المسرح ، لا نخلعها ونلبسها ، بل يخلعنا بعضُها ليلبسَنا بعضُها الآخر ؛ فلسنا نبتدع ولكن يُلْقى علينا ، وما نحن بمخترعين ولكننا نحتذى ؛ والرواية موضوعة تامة قبل تمثيلها ، وَضَعَها ذلك القلمُ الأعلى الذى كتب مقاديرَ كل شىء ـ كان أو يكون ـ حتى تُمْحَى من صفحة الأرض هذه الأحرفُ السوداء المتحركة والساكنة . . . (١)

والمشكلة الإنسانية الكبرى ، أن كل إنسان يريد أن يكون بطلَ الرواية ومَثَلَها البِكْر ، حتى ذلك الشخص الذى جىء به لتنزل عليه اللعنةُ فى سِياقها ؛ غير أن الرواية مفصَّلةٌ من قبل ، ويأتى فصلُ اللعنة كما هو بأطرافه وحواشيه وأسبابه ونتائجه ، فينصبُّ على ممثِّله

(١) كناية عن الناس .

جملةً واحدة على وجه لا يُحَس ولا يُرى ولا يُدفَع ، كما يلبسه النوم فإذا هو يَفْتِل فيه فتلًا ، وإذا رجُلٌ على أعين الناس باللعنة حال وباللعنة مرتحل !

النوم والقَدَر والموت كالشيء الواحد ، أو ثلاثتُها أجزاء لشيء واحد ؛ فالنوم غفلة تُخرج الحيَّ هُنَيْهَة من الحياة وهو فيها على حالة أخرى ، والموت غفلةٌ تخرجه من الحياة كلها إلى حالة أخرى . والقدر منزلةٌ بين المنزلتين : يقع هَينًا على أهل السعادة بأسلوب النوم ، ويجيء لأهل الشقاء عنيفاً فى أسلوب الموت ! ولن يجلب شيئا أو يَدفعَ عن نفسه شيئا من هذه الثلاثة ، إلا الذى لم يُخْلق على الأرض ... ذلك الذى يستطيع أن يفتح عينيه على الليل والنهار فلا ينام ، أو يحفظ نفسه على الصغر والكِبَر فلا يموت ، أو يضرب بيديه على مَدَار الفلَك فيُمسكه ما شاء أو يُرسله !

* * *

جئنا إلى هذه الحياة غير مخيرين ونذهب غير مخيرين إن طوعا وإن كرها ؛ فَمُدَّ يدَك بالرضا والمتابعة للأقدار أو انزعها إن شئتَ فإنك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضا ما أنت على الغضب ، وان تعرف فى مذاهب القدر إذا أنت أقبلت أو أدبرت